16 ème Année No. 808

Lundi — 26 — 12 — 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٣٦٨ — ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

الأسرة المنبـــوذة

— ٢ —

نعم يا سيدتى أذكر أنى كنت وأنا صبى أمر فى طريقى إلى الكتاب بمنزل المعلم يوسف النجار فأجده كل صباح جالساً تحت جداره فى يمناه قدومه وفى يسراه يد فأس يسويها ، أو بسكة محراث يقومها ، أو ورش طنبور يجدده ؛ وأصحاب هذه الأدوات من شباب القرية قيام من حوله أو قعود ينتظر كل منهم دوره ليقدم آلته أو ليسأل حاجته . وكان مظهر النجار المرح ومنظر حلقته الصاخبة يغريان صبيان الكتاب بالوقوف فيقفون ليسمعوا هذا يستحثه بالسب لأنه عوّقه عن الحولى ، وذلك يبادره بالعتب لأنه غشه فى خشب الزحافة ، وذلك يركبه بالدعابة لأنه غبنه فى ثمن النورج ؛ ثم ليروا المعلم يوسف مكباً على عمله ، ووجهه متهلل بالضحك ، ولسانه متحرك بالمزاح ، يجزى على السباب بالنكتة اللاذعة ، ويحتج على العتاب بالحجة البارعة ، ويرد على الدعابة بالسخرية المرة . حتى إذا انصرف الفلاحون إلى حقولهم ، انصرف هو إلى دورهم ، فتسأله هذه إصلاح المطرحة ، وتسأله تلك تثبيت الباب ؛ وهو يجيب كل طلب بابتسام ، ويؤدى كل عمل باهتمام ؛ لأنه يقوم لأهل القرية جميعاً بنجارة البيت والفيط مسانهةً فيأخذ من كل أسرة كيلتين فى موسم القمح وكيلتين فى موسم الذرة . ومن هذه الجباية السنوية يجتمع له ثروة من الحب تظهر بركتها فى عيشه الرضى وبأله الرخى وزيه الجميل . واستبد النجار الوحيد بخير البلد وارتفع به الغنى إلى طبقة أعيانه . ونظر يوسف فى أمره فلم يجد فى نفسه حاجة يتمناها على الله غير زوجة تكون لعُشه الخالى سكينة وزينة . والتمسها فى فتيات القرية فلم ينلها ، لأن الفقيرة أقل مما يبغى ، والغنية أكثر مما يستطيع . فأشارت عليه أمه العجوز أن يتزوج من قرية أخواله وهى على بُعد كيلين من قريته ؛ فدله نصيبه على فتاة رأيناها بعد زفافها عليه ودخوله بها فإذا منظرها يملأ العين ويشغل الفؤاد : جسم بضٌّ ممتلىء يكاد الثوب من رِيِّه يلتصق به ، وقوام سبطٌ معتدل يتثنى تثنى الغصن الأملد ، ووجه مشرق اللون كأن على كل صفحة من صفحتيه وردة جورية ، أو تفاحة أمريكية ، وساعدان عبلان يحليهما ، من الرسغين إلى الرفقين ، أساور من الزجاج الأحمر المذهب ، ويدان رخصتان تزينهما أسطار من الوشم الأخضر المنمنم وهندام مدنى جرىٌ ، ظل حديث الدور والمصاطب مدة طويلة !

كثر الفضول حول دار النجار ، فكل امرأة تريد أن ترى وكل رجل يحب أن يسمع ، ومضت الأيام ومال بعض الجارات على بعض يقلن وهن يملأن جرارهن من النهر : إن لامرأة المعلم يوسف لوناً حين يتنفس الصبح ، ولوناً حين يمتع الضحى ؛ لونها فى طلعة الشمس أسمر حائل ، ولونها فى ميعة النهار أزهر مشبوب !

ثم مضت الأيام وقالت جارة لصواحبها وهن يحملن الحطب إلى البيوت : لقد رأيت بعينى محمد العطار يقف على باب النجار ويعطى زوجه شيئاً فى السر فأخذته مسرعة وهى تتلفت ، وغيبته

فى توبها وهى تهمس ، ومحمد العطار هذا بائع جوّال ينتقل بحماره وخُرجه بين القرى المتجاورة ، فيبيع الألبان اللدن والصابون المسكّك والمناديل المركشة والفوانيس الملونة ، وسلعاً أخرى تتصل بالزينة والتجميل يُسارُّ بها النساء ، فينفرن منها ويطول حديثهن عنها .

ثم مضت الأيام وجاءت جارة أخرى تعرض على جاراتها وهن يخبزن رُغفانهن فى الفرن المشترك . حُقةً صغيرة من الصفيح الأخضر على غطائها المستدير مرآة ، وفى جوفها الفارغ آثار من صبغ أحمر ؛ وتقول أنها التقطت هذه الحقة خفية من دار النجار ؛ وهى تؤكد أن هذا الأحمر هو (حُسنُ يوسف) الذى طالما أغراهن به العطار ؛ وترجح أن هذه المرأة الفاجرة تصبغ به وجهها ؛ ولا يجرؤ على تغيير خلقة الله إلا الفوازى فى القرى وبنات الهوى فى المدن . ولابد أن تكون هى من هؤلاء أو من أولئك .

وانتشر الخبر فى القرية انتشار الظلام ، فلم يبق من لا يعرف أن زوجة المعلم يوسف تستعمل حُسن يوسف .

ثم مضت الأيام وغدوتُ ذات صباح إلى الكتاب ومررت فى طريقى إليه بدار النجار فإذا الحال غير الحال والمنظر غير المنظر: تقوض المجلس وأقفر المكان ، فلا الرجل قاعد تحت جداره ينجُر ولا الجمع حاشد من حوله ينتظر ! وأسأل نفسى وأسائل الصبيان : ما ذا صنع الدهر بالمعلم يوسف ؟ لم يعُد رجل يستأجره لعمل ، ولم تعد امرأة تزوره فى حاجة ! فيقولون لقد قاطعه القريب وتحاشاه البعيد ، لأنه تزوج من الخبيزة ! والخبيزة كما علمت من بعد ، اسم يطلقه أهل المنصورة وضواحيها على المواخير ، والمواخير الفسق ما لحارات اليهود من تعدد الأسماء فى مختلف الأنحاء ، على مسماها القذر الواحر .

وطال احتباس الرجل فى بيته وتعطّله من عمله حتى صدىء قدومه ومنشاره ، وبيع فى الدين متاعه وعقاره . فاقترحت عليه أمه أن يطلق زوجه إبقاء على سمعته وصحته وصنعته ؛ فقال لها فى إباء وألم : وما ذنب هذه المسكينة يا أماه ، وإنك لتعلمين كما أعلم أنها طاهرة الثوب قاصرة الطرف ، وإنما جنى عليها هذه الجناية تقليدها البرىء لابنة عمها المتزوجة فى القاهرة . وقد حرمت على نفسها منذ أن شاع ما شاع أن تتزين حتى بالزجاج ، وأن تتجمل حتى بالكحل . والرأى عندى أن نهاجر تحت الليل إلى عزبة من العزب المنشأة فى أطراف بلقاس فنستأنف هناك حياة جديدة وعسى الله أن يجعلها بفضل براءتنا واستقامتنا موفقة سعيدة .

وأصبح الناس فإذا دار النجار مفتوحة بعد أن ظل بابها مغلقا أثناء الأنهار سنةً وشهرين لم يدخل منه داخل ولم يخرج منه خارج . فنفذ المارون بأبصارهم إلى دهليزها فلم يلحظوا حركة تبدوا ولم يسمعوا صوتا ينبعث ؛ فتسللوا إليها حذرين مستطلعين فلم يجدوا وا أسفاه إلا ربعاً أوحش بعد أنس ، وروضاً صوّح بعد بهجة ، وشملا تبدد بعد اجتماع .

ثم مضت الأيام وتعاقبت الأعوام وفعل الزمن فعله فى العقول والميول فأصبحنا فإذا الرجل هو الذى يشترى الأحمر لزوجته لتصبغ ، ويخلع المطف عن ظهر أمه لتعرَى ، ويشعل السيجارة لأخته لتدخن ، ويقدم المراقص إلى إبنته لترقص ! !

ما أقربنا من ذلك الزمن وما أبعدنا عن تلك الحياة ! ! كان الولد يشب ثم يتزوج ثم يولد له ويبتليه الله بالتدخين فلا يستطيع أن يعلن ذلك لأبيه ، ولا يجرؤ على أن يدخن فى حضرة من يكبره . وكان الأخوة لأب وأم يعيشون فى دار واحدة ثم لا يرى أحدهم زوجة الآخر . وكانت المخدّرة إذا سهّلت من حجابها ، أو تبرجت بين أترابها ، انتفت منها العشيرة وتحامتها الجيرة . ثم أمسينا فإذا المرأة هي التى تدير الأمر وتسير العرف وتحجب الرجل . وإن مجلسى منكما هذا المجلس ، وظهوركما علىّ هذا الظهور ، لشاهدان على هذه الحال !

فقالت جارتاى بلسان أوشك أن يكون واحداً فى لفظه : تلك سنة الحياة يا أستاذ ! تقدمٌ ينسخه تجدد ، وتأخر يدفعه تقدم ، ورق يخلفه تحرر ! فقلت لها إن ألفاظ التجدد والتقدم والتحرر كألفاظ الحق والعدل والاستقلال ، لها فى كل ذهن معنى ، وفى كل نظام صورة ، وفى كل أمة دلالة . لقد تقدمنا فى التعليم ولم نتقدم فى التربية ، وجددنا فى الصور ولم نجدد فى الفكرة ، وتحررنا من السوط ولم نتحرر من الهوى ، ... وهنا سحبت جارتى اليسرى من محفظتها سيجارة أخرى ، ثم بحثت عن علبة الثقاب فلم تجدها ، فاضطررت إلى أن أقطع الحديث وأدور بين الجماعة ، لألتمس لها من بعضهم ثقاباً أو ولاعة ! !

مصطفى الرافعى